

✽ رسالة عبد الرحمن الثعالبي في الجهاد-دراسة تحليلية-

**Abdul Rahman Al-Thalabi's Message on Jihad
- An Analytical Study -**

✽ يوسف خبزاوي*

جامعة الجزائر1 بن يوسف بن خدة، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

youcefkhobzaoui@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/01/11 تاريخ القبول: 2023/05/15 تاريخ النشر: 2023/07/30

ملخص:

جاءت هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على رسالة بعثها عبد الرحمن الثعالبي إلى أحد تلاميذه تناولت بعض النصائح والتوجيهات في الجهاد، وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها متعلقة بعلم من أعلام الجزائر، وهي تهدف إلى كشف اللثام عن جانب -قد يكون خفياً- من جوانب سيرة الثعالبي، ولهذا يحق للباحث أن يتساءل عن الجوانب المهمة في شخصية الثعالبي التي كشفت عنها هذه الوثيقة؟ ومن أجل دراسة مضمون هذه الوثيقة وتحليلها، كان لزاماً علينا أن نعرف بصاحب هذه الوثيقة، ثم عرض نصّها، ثم تحليلها، مستخدماً في سبيل تحقيق ذلك المنهج الوصفي والتحليلي.

الكلمة المفتاحية: الجهاد؛ الثعالبي.

* المؤلف المرسل

.Abstract:

This research paper came to highlight a letter sent by Abdel Rahman Thalabi to one of his students that addressed some tips and guidance in jihad, and the importance of this study lies in the fact that it is related to one of the flags of Algeria, and it aims to reveal an aspect - which may be hidden - of aspects of the biography of the foxes, and therefore the researcher has the right to wonder about the important aspects of the personality of the foxes revealed in this document? In order to study and analyse the content of this document, we had to identify the author of this document, then present its text, and then analyses it, using in order to achieve that descriptive and analytical approach.

Keywords: jihad ;Thalabi.

1. مقدمة:

تكاد تتفق كلمة المؤرخين والباحثين على أنّ القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي عرف ركوداً علمياً وجموداً فكرياً، بالنسبة لما سبقه من القرون، لأسباب عديدة، سياسية، وفكرية... ومع هذا فقد عرف العالم الإسلامي عموماً والجزائر خصوصاً ثلة من العلماء والمصلحين كان لهم الأثر في حواضرهم وخارج بلدانهم، وساهموا بشكل كبير في تنشيط الحياة العلمية والثقافية، مع إراثهم المكتبة الإسلامية، ومن هؤلاء العلامة عبد الرحمن الثعالبي، وسعيًا من الباحث لتسليط الضوء على هذه الشخصية العلمية، وإبراز دوره الحضاري في الأمة الجزائرية، جاءت هذه الورقة البحثية لتشرح رسالة بعثها الشيخ عبد الرحمن الثعالبي -رحمه الله- إلى أحد تلاميذه ضمّنها الشيخ نصائح وتوجيهات في الجهاد.

مشكلة الدراسة:

وفي هذا السياق تطرح الدراسة السؤال الآتي:

ما هي الجوانب المهمة والخفية في شخصية الثعالبي التي كشفت عنها هذه الوثيقة؟

منهجية الدراسة: اقتضت طبيعة الموضوع استخدام المنهج الوصفي لبيان مضمون الرسالة، ثمّ المنهج التحليلي لنقد الرسالة نقدًا خارجيًا، وداخليًا.

2. التعريف بالشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وعصره:

1.2. حياته الشخصية⁽¹⁾:

1.1.2. اسمه ونسبه: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري. وهو ينتمي إلى قبيلة الثعالبة العربية، من أبناء ثعلب بن عليّ، من عرب المعقل. ينتهي نسب الشيخ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، عمّ النبي ﷺ.

2.1.2. مولده: ولد عبد الرحمن الثعالبي بمنطقة واد يسّر التي تبعد عن مدينة الجزائر بنحو ستّ وثمانين كيلو متراً (86 كم) إلى الجنوب الشرقي سنة 786 هـ (1384 م).

3.1.2. وفاته: توفي الشيخ عبد الرحمن الثعالبي ضحوة يوم الجمعة 23 رمضان سنة 875 هـ (مارس 1471 م)، ودُفن بـ (جبانة الطلبة) بمدينة الجزائر، حيث ضريحه الشهير به إلى اليوم.

2.2. حياته العلمية:

1.2.2. رحلته في طلب العلم⁽²⁾: رحل عبد الرحمن الثعالبي في طلب العلم إلى بجاية سنة 802 هـ (1400 م)، ومكث فيها سبع سنوات ينهل من مواردها العذبة، ولا يأخذ العلم إلا عمّن عرف بالزهد والورع من علمائها وفقهائها.

ثمّ رحل إلى تونس أواخر سنة 809 هـ (1407 م)، ومكث بها تسع سنين.

وبعد تونس انتقل الشيخ إلى مصر، وكان ذلك سنة 817 هـ (1415 م)، ولم يبق فيها إلا سنة واحدة، لينتقل بعدها إلى بورصة بتركيا، وهناك أُقيمت له زاوية، ثمّ إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحجّ، ثمّ عاد إلى تونس سنة 819 هـ (1417 م).

⁽¹⁾ تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي: 283-280/2.

⁽²⁾ المرجع نفسه: 281-280/2.

وعند رجوع الشيخ إلى الجزائر بعد رحلة علمية دامت عشرين سنة، وكان ذلك أواخر سنة 820هـ (1418م)، تولى التدريس والوعظ والإرشاد، مع اعتكافه على التأليف، وقد تولى القضاء، لكن سرعان ما تركه وخلع نفسه، ليعتكف على التدريس، والتأليف.

2.2.2. شيوخه⁽³⁾: في بجاية: أخذ الشيخ عبد الرحمن الثعالبي عن أبي الحسن علي ابن عثمان المأجلاقي (ت: أواخر القرن الثامن)، وكانت عمدة قراءته عليه، وكان ذلك في مسجد عين البربر،

- وأبي القاسم المشدالي (ت: 846هـ)،

- وأبي الربيع سليمان بن الحسن البوزيدي (ت: 845هـ)،

- وأبي الحسن علي بن محمد الليلي.

- وعلي بن موسى التالدي (ت: 816هـ)،

- وأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن النقاوسي (ت: 810هـ).

وفي تونس: كان اعتماده على أبي عبد الله الأبي (ت: 828هـ)، وقد أجازته وأذن له هو في الاقراء.

تتلمذ أيضاً على:

- أبي مهدي عيسى الغبريني (ت: 815هـ)،

- وأبي القاسم البرزلي (ت: 842هـ)، أخذ عنه البخاري إلا يسيراً،

- وأبي يوسف يعقوب الزغبي (ت: 833هـ).

- وأخذ عن أبي عبد الله القلشاني (ت: 837هـ) عند عودته إلى تونس بعد أن وجدته

يدرس في موضع شيخه الغبريني.

⁽³⁾ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي: 171/5.

- ولقي بتونس محمد ابن مرزوق الحفيد (ت: 842هـ)، عند قدومه إليها قاصداً الحج، فسمع عليه الموطأ بقراءة الفقيه أبي حفص عمر القلشاني سنة 918هـ. وقد أجاز له هو في التدريس، وحرّضه على إتمام تقييد وضعه الشيخ الثعالبي على مختصر ابن الحاجب الفرعي.

في مصر: حضر كثيراً عند شيخ المحدثين بها وليّ الدين العراقي، وأخذ عنه علوماً جمّة، معظمها علم الحديث، وأجاز له في جميع مؤلفاته.

وأخذ العلم أيضاً عن شيخ المالكية بمصر أبي عبد الله البساطي.

في مكة: لقي بها بعض المحدثين، وأخذ عنهم.

3.2.2. تلاميذه⁽⁴⁾:

- محمد بن يوسف السنوسي (ت: 895هـ).
- علي بن محمد التالوتي، أخو محمد بن يوسف السنوسي لأُمّه (ت: 895هـ).
- أحمد بن عبد الله الجزائري (ت: 898هـ).
- محمد بن محمد ابن مرزوق الكفيف (ت: 901هـ).
- محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت: 909هـ).
- عبد الباسط بن خليل المالطي، التقى أثناء رحلته بالشيخ عبد الرحمن الثعالبي في مدينة الجزائر، وحضر دروسه، وسأل عن بعض المشكلات، وقرأ عليه بعض السطور من تفسيره، وأجاز له فيه⁽⁵⁾.

⁽⁴⁾ نيل الابتهاج، بابا التنيكي: ص260؛ وتاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي: 281/2.

⁽⁵⁾ تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله: 536/1، الهامش (2).

4.2.2. مصنفاته⁽⁶⁾: للشيخ عبد الرحمن الثعالبي تصانيف كثيرة في فنون مختلفة، أوصلها بعضهم إلى ما يزيد على التسعين، بين كتب مستقلة، ومتون، وشروح، وحواشي، وتعليق، أشهرها:

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: وهو اختصار لتفسير ابن عطية الأندلسي، مطبوع في أربعة أجزاء.
- الأنوار في معجزات النبي المختار ﷺ: طبع في ثلاثة أجزاء بتحقيق: محمد شريف قاهر.
- الإرشاد في مصالح العباد: طبع بتحقيق: محمد فؤاد بن خليل القاسمي.
- روضة الأنوار ونزهة الأخيار في الفقه: جمع فيه الشيخ لباب نحو ستين من أمّهات كتب الفقه المالكي المعتمدة.
- الأنوار المضئية الجامع بين الشريعة والحقيقة.
- رياض الصالحين.
- التقاط الدرر.
- الدرر الفائقة في الأذكار والدعوات.
- العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة: طبع في جزأين بتحقيق: محمد بن خوجة.
- شرح ابن الحاجب الفرعي.
- إرشاد السالك: كتاب صغير الحجم.
- جامع الأمّهات في أحكام العبادات.

⁽⁶⁾ بابا التنبكي، مرجع سابق: ص259-260؛ والتحفة المرضية في الدولة البكداشية، محمد بن ميمون: ص341-342؛ عبد الرحمن الجليلي، مرجع سابق: 282/2.

5.2.2. ثناء العلماء عليه: لقد نال عبد الرحمن الثعالبي من ثناء العلماء عليه الشيء الكثير، وشهادتهم له بالفضل والعلم، منها:

قال السخاوي: «كان إمامًا علامة مصنفًا اختصر تفسير ابن عطية في جزأين وشرح ابن الحاجب الفرعي في جزأين وعمل في الوعظ والرقائق وغيرها»⁽⁷⁾.

وقال عنه زروق البرنسي: شيخنا الفقيه الصالح والديا عليه أغلب من العلم، يتحرى في النقل أتم التحري وكان لا يستوفيه في بعض المواضع.

وقال ابن سلامة البكري: كان شيخنا الثعالبي رجلًا صالحًا زاهدًا عالمًا عارفًا وليًا من أكابر العلماء، له تأليف جمّة أعطاني نسخة من تفسير الجواهر لا بشراء ولا عوض، عاوضه الله بالجنة⁽⁸⁾.

3.2. عصر عبد الرحمن الثعالبي:

1.3.2. الحالة السياسية: لم يشهد عبد الرحمن الثعالبي رئاسة الثعالبية على سهول متيجة التي منحهم إيّاها أبو زيان بن عثمان بعد انتصاره على أبي حمو الثاني في بجاية، وفرار هذا الأخير إلى مدينة الجزائر، ومنها إلى تلمسان. وبعد استيلاء أبي زيان على المدينة ومليانة والجزائر، أعطى سالم بن إبراهيم رئيس الثعالبية سهول متيجة، وبقي رئيسًا عليها إلى أن استعاد أبو حمو ملكه، وزحف إليه وحاصره بجبال متيجة أيامًا قلائل، واستنزله على عهده، ثم أخفّره وتقبّض عليه وقاده إلى تلمسان أسيرًا وقتله، وذهب أثره وما كان للثعالبية من الرئاسة على متيجة⁽⁹⁾.

⁽⁷⁾ الضوء اللامع، السخاوي: 152/4.

⁽⁸⁾ بابا التنبكي، مرجع سابق: ص 258.

⁽⁹⁾ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون: 85/6.

لقد عاش الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، عاش أكثر حياته في بلده الجزائر، منها خمسة وخمسون سنة في مدينة الجزائر، ما بين سنة 820هـ تاريخ عودته إلى أن وافته المنية سنة 875هـ. هذا القرن شهد انهيار وسقوط دولة الموحدين في موقعة حصن العقاب بالأندلس سنة 627هـ، الذي أعقبه تشكّل ثلاث إمارات رئيسية: الحفصيون في تونس والشرق الجزائري، المرينيون في المغرب الأقصى والغرب الجزائري، والزيانيون من بني عبد الواد بالغرب الجزائري والوسط، وكانت كلّ إمارة تعتقد أنّها الوريث الشرعي لدولة الموحّدين، ما جعلها تدخل في نزاعات وحروب من أجل السيطرة واستيلاء كلّ إمارة على ما في يد الأخرى، بالإضافة إلى الصراعات الداخلية والتطاحن العائلي داخل هذه الإمارات. هذه الصراعات هي التي فتحت شهية بني الأصفر للسيطرة على سواحل شمال إفريقيا، وأدخلت المدن والحوضر الجزائرية في الفوضى، وغياب الأمن، من انتشار اللصوص وقطّاع الطرق. ففي القرن التاسع الهجري احتلت تدلس (دلس) وجيجل وعنابة وبجاية ووهران، وما زاد الطين بلّة والحال سوءًا هو التّجاء الأطراف المتنازعة إقليميًا أو عائليًا إلى الغزاة طالبين منهم النصر على إخوانهم⁽¹⁰⁾.

2.3.2. الحالة الثقافية: إنّ الاضطرابات السياسية التي عرفت الجزائر ألقت بظلالها على الواقع الثقافي والحياة العلمية، وكانت لها الآثار السلبية، ولعلّ أسوأ هذه الآثار هي خروج ثلّة من كبار علماء الجزائر، أذكر منهم: أحمد بن يحيى الونشريسي، صاحب المعيار المعرب، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي، ومحمد المشدالي، وغيرهم⁽¹¹⁾.

⁽¹⁰⁾ تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله: 40/1-41.

⁽¹¹⁾ المرجع السابق: 44/1.

لكن رغم هذا فقد عرفت الحياة الثقافية في الجزائر نشاطاً فكرياً مستمراً وحركةً علميةً متواصلة، لا سيما مدن تلمسان، ووهران، ومليانة، والجزائر، وبجاية، وقسنطينة، وعنابة، دون نسيان مدينة تونس، ومراكش في الخارج، بل يمكن القول بأنّ تدهور الوضع السياسي لبني زيان وبني حفص وبني مرين كان عاملاً في ازدهاره وانتشاره، وباعثاً للسلاطين على التنافس في استقدام العلماء والأدباء إلى بلاطهم، والتجمل بهم في مجالسهم، والاستفادة من علومهم ومعارفهم، وقد كان بعض السلطين منتبهاً إلى هذه الحركة العلمية والأدبية، كأبي حمو موسى الثاني، السلطان الزياني الذي حكم ما بين 760 إلى 791هـ، فقد كان شاعراً مفعّوهاً أثنى المكتبة الإسلامية بقصائده وأشعاره⁽¹²⁾، وله كتاب (واسطة السلوك في سياسة الملوك) لخص فيه كتاب (سلوان المطالع) لابن ظفر⁽¹³⁾.

وقد كان للعلوم الدينية الحظّ الأوفر من هذه الحركة، والتي كان الثعالبي واحداً من روادها والمؤثرين في ساحتها، ساعده في ذلك البيت والأسرة العلمية التي ينحدر منها، بالإضافة إلى رحلته الطويلة في طلب العلم واحتكاكه خلالها بعلماء أجلاء، وفقهاء فضلاء، فكان بذلك متأثراً أولاً ومؤثراً ثانياً بواسطة تلاميذه، ومصنّفاته، وزاويته⁽¹⁴⁾.

وجملة القول أنّ الإنتاج العلمي في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي يُعتبر الأوفر، إذا ما قارناه بما بعده، بل إنّ كثيراً من الإنتاج العلمي والمعرفي في القرن التاسع الهجري كان موضع عناية علماء القرون اللاحقة والتعليق عليه وشرحه....⁽¹⁵⁾.

(12) المغرب العربي تاريخه وثقافته، رابح بونار: ص326.

(13) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقرئ: 249/1.

(14) تاريخ الجزائر الثقافي: 92/1.

(15) المرجع نفسه: 39/1.

3. التعريف بالرسالة:

1.3. نسبة الرسالة إلى الشيخ عبد الرحمن الثعالبي:

هذه الرسالة عشر عليها المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله ضمن مخطوط جزائري يعود تاريخ نسخه إلى القرن الثامن عشر الميلادي. وقد وجدته بإحدى المكتبات العامة خارج الجزائر، واسم الثعالبي مكتوب فيها هكذا: عبد الرحمن بن محمد الثعالبي. ونقل أبو القاسم نصّ الرسالة بخطّ يده.

الرسالة تقع في ورقتين، نسخها: يخلف بن محمد الذي نقلها من خطّ عبد الرحمن الثعالبي⁽¹⁶⁾.

2.3. موضوع الرسالة:

الرسالة موجّهة من عبد الرحمن الثعالبي إلى محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف، الذي كان بمكان قريب من مدينة بجاية.

وحسب نصّ الرسالة فإنّ هذا الأخير من تلاميذ الشيخ الثعالبي، أو واحدًا من أتباعه، بعث برسالة يستشير فيها الشيخ في نقل كتبه من زاوية إلى مكان آخر لم يذكره، فوافقه الشيخ على ذلك، بشرط أن لا تنقل الكتب بعيدًا عن المكان الأوّل، ثمّ اغتنمها الثعالبي فرصةً ليعث له بالرسالة -موضوع الدراسة- ضمّنها كلامًا طويلاً عن الجهاد، ستعرض له هذه الورقة البحثية بالتحليل والتشريح.

⁽¹⁶⁾ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله: ص 203-204.

3.3. نص الرسالة:

«من عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، لطف الله به، إلى مقام الولد الفقيه الخير أبي عبد الله محمد بن أخينا في الله سبحانه سيدي أحمد ابن سيدي يوسف الكفيف، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فقد وفقني الله وإياكم لمرضاته، وأنعم علينا وعليكم بجزيل فضله وعميم خيراته، فقد وقفت على كتابكم وأنتم تستشيرونني (كذا) في نقل كتبكم إلى زواوة خوفاً من عدو الدين أن ينزل بساحة المسلمين، فاعلم -رحمك الله- أن نقلها من الحزم، ولكن إلى ما قرب منكم من الأماكن؛ لأن العدو، دمرهم الله، إنما مقصدهم المدن.

وفرحت بحمد الله باشتغالكم بدرق العود، فما يوجد أنفع للنشاب ولا لدفع مضرتهم من درق العود، فمن كانت بيده درقة عند لقاء العدو يشفي ويستشفى ويبلغ غرضه بحول الله تعالى وقوته، وأما درق الجلد من لمط أو غيره، فلا يغتر بها؛ لأن السهام تنفذها (كذا)، وتتجاوزها إلى ثمسكها. هذا مع القرب جرنانه مراراً. ودرق العود لا تنفذ (كذا) فيها مع القرب، فأحرى مع البعد، فاختبروا ما ذكرناه لكم يبين لكم الصواب.

ولست أخاف على بلدكم؛ لأن والدكم -رحمنا الله وإياه- أخبرني أنكم إن رأيتم ما لا تطيقون من كثرة العدو تُخلون من أجله ولا يبقى في البلد إلا المقاتلة، ونصر الله تعالى معكم مأمول، ولأن العدو إذا علم أن الذرية والحريم وما عز من المال قد فاتته، فت ذلك في عضده ولم يقتحم كل الاقتحام لفوات غرضه.

وأهل بلدنا وما قرب منها، بل وما بعد عنهم، لما أن حرّضتهم على درق العود، اجتهدوا في ذلك حاضرةً وباديةً، فرحت -بحمد الله تعالى- بامثالهم ما أمروا به. وقد قدّمتُ إلى فضلائهم أن النبي ﷺ أكد وأكد كثيراً، فحرضتُ الناس جهدي، ورأيت أثر ذلك في الناس -بحمد الله تعالى- فإنهم سارعوا وصدقوا وامتثلوا، وقد وعدنا النصر -بحمد الله تعالى-، وقد تكرر عليّ التحريض نحو سبع مرّات، وفي بعضها شدّ روحك،

يعني في التحريض، وفي بعضها وأنتم منصورين (هكذا بالياء). والذي آمركم به -وفقكم الله تعالى- أن تكثرُوا من درق العود كثرةً تعممكم وتعم من يصرخكم.

وقد جاءني بعض إخواني من أهل الفضل، فقال: رأيتُ كأنَّ فارسًا، وبيده درقة، وهو يقول: وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة الدرق والرماح. وفي رؤيا عنه ﷺ قال: من عمل درقةً، يعني للجهاد، فإنَّها تحول بينه وبين النار. لما أخبرتهم بهذه الرؤيا زادهم ذلك رغبةً، حتى إنَّ جماعةً من النساء اشترين الدرق لأجل وعده الصادق ﷺ.

واعلم يا أخي أنَّ قلبي متألم من أهل بجاية، وخفت عليهم كثيرًا من جهة أمسيوين. وقد بعثت إلى بعض الفقهاء منهم بالتحريض من غير كتب، فما رأيت لكلامي عندهم تأثيرًا كما أترُّ هنا، وإذا أراد الله بأمرٍ، فلا محيد عنه، وإن هم قبلوا نصحي، كانوا ممتثلين لتحريض النبي ﷺ، فإنَّ كلامه حقٌّ يقظةً ومنامًا، ورؤيته حقٌّ، فإنَّ الشيطان لا يتمثل بصورته، أي: مطلقًا.

والذي أحبه منهم أن ينهضوا ويسرعوا في عمل الدرق من الصفصاف، وتكون كاسيةً، ولا يتكلموا على الطوارق، ولا على درق اللطم، كما أخبرتك، فاكتب إليهم بالتحريض في عمل الدرق، ويكثرُوا كثرةً تعممهم وتعم من يصرخهم. وأهل بواديهم، أعلمهم -قديمًا- عراءً لا درق معهم إلا نادرًا. وقد انتهى حال أهل جبالنا إلى أن اتَّخذوا الدرق من الفرنان، وكذلك أنتم، فافعلوا بمن أعوزه درق العود، فليصنعه من الفرنان الغليظ طبقين طبقين، فإنَّ كلَّ عاقل يستشعر قتال بني الأصفر، فإنهم قد أصيبوا في القسطنطينية (كذا) وغيرها. وقد علمتم أنَّ أخذها من الأشرار. وإنَّ لبني الأصفر حميةً في النصر لصليبيهم.

فاكتب -رحمك الله- إلى أهل بجاية، وحدِّرهم ليتيقظوا ويعملوا ما أشرنا إليه من الدرق على الوجه الذي أشرنا إليه، فهي أقرب مرأً وأقلَّ كلفةً من بناء الأصوار (كذا) التي لا يرقها (أو يرفعها) إلا المال الكثير في الزمان الطويل، ويُخاف أنَّ الأمر أعجل. اللهمَّ إني قد بلغت، اللهمَّ إني قد بلغت، اللهمَّ اشهد، اللهمَّ اشهد، اللهمَّ اشهد. وإذا وصل إليك هذا الكتاب، فاقرأه على جميع أصحابنا، ثمَّ ابعث به إلى بجاية لمن يعلن به ويشيعه.

ولو اطلّعت على ما اطلّعت عليه من التحريض، لما وسعكم أن تشتغلوا شيء من أمور مهماتكم بعد الصلاة إلا بآلة الجهاد. والله والله لو لم يكونوا (كذا) بنوا الأصفر على وجه الأرض لخلت أن ينبعوا من تحت الأرض، لما رأيت من التحريض والتحذير منهم من قبل النبي ﷺ، ومن يجب تصديقه، ولا يمكنني التصريح به لضعيف الإيمان. وقد سئل بعض الأولياء عن مسألة، فسكت، وقال للسائل: إنّ إيمانك لا يحتمل هذا. وبالجمل، الحذر الحذر ممّا حذرتكم.

وأما تعيين وقتهم، فذلك إلى الله، هو أعلم. نعم، قرأين الحال وما شوهده من تحريض النبي ﷺ يؤذن بالقرب. وممّا ينبغي أن تُكثروا منه المكاحل كثرة تعمكم وتعم من يريد صرختكم.

كملت من خطّ الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وكتب سيدي يخلف ابن محمد أصلحه الله⁽¹⁷⁾.

4. تحليل الرسالة:

1.4. شرح الكلمات:

- ورد في رسالة الثعالبي جملة من المفردات تحتاج ممّا إلى شرح وبيان لمعناها، هي:
- زواوة: من قبائل كتامة، وهم سكان الشمال الشرقي الجزائري، ما بين بجاية وتدلّس (دلّس)⁽¹⁸⁾.
 - الدرق: جمع دَرَقَة، وهي ثُرْسٌ من جلود ليس فيه خشب ولا عَقَب⁽¹⁹⁾. النُّشَابُ: النّبل، والسّهام⁽²⁰⁾.

⁽¹⁷⁾ المرجع نفسه: ص 208-211.

⁽¹⁸⁾ ابن خلدون، مرجع سابق: 6/168-169.

⁽¹⁹⁾ لسان العرب، ابن منظور: 95/10.

⁽²⁰⁾ المرجع نفسه: 757/1.

- اللط: أرض لِقَبِيلَةٍ بِالْبَرْزِ، يُنسب إليها الدَّرَقُ؛ لأنهم يَنْقَعُونَ الجلود في الحليب سنَةً، فيعملونها، فَيَنْبُو عنها السيفُ القاطِعُ⁽²¹⁾.
- الطوارق: التروس من الجلد. يقال: تُرْسٌ مُطَرَّقٌ، إذا طَوَّرَقَ بجلدٍ على قَدْرِهِ⁽²²⁾.
- الفرنان: البلوط.
- بنو الأصفر: هم الروم⁽²³⁾.
- المكاحل: جمع مكحلة، وهي نوع من بنادق البارود التقليدية المغربية، بعار صغير وماسورة طويلة⁽²⁴⁾.

2.4. شرح نص الرسالة:

جاءت هذه الرسالة من الشيخ عبد الرحمن الثعالبي جوابًا لرسالة من تلميذه أو محبّه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف يطلب فيها نصيحة من الثعالبي في نقل كتبه إلى منطقة بجاية خوفًا عليها من الغزاة الكافرين من الروم، فوافقه الشيخ على نقلها، ولكن إلى مكان قريب، ولا ينقلها إلى المدينة؛ لأنها مقصد الكفار المعتدين.

وبعد هذه الإشارة من الثعالبي لأبي عبد الله، أبدى له سعادته باشتغالهم بصناعة التروس (درق) من عود الصفصاف، أو الفرنان؛ لأنها أنفع للمجاهد، ولا تنفذ منه السهام والسيوف بخلاف درق الجلد، فإنه لا يمنع نفاذها، قاله الثعالبي عن تجربة قام بها بنفسه، ونصح بها سكان مدينة الجزائر وما جاورها عند استعدادهم للجهاد بتحريض منه.

⁽²¹⁾ القاموس المحيط، الفيروزآبادي: ص 686.

⁽²²⁾ مقاييس اللغة، ابن فارس: 452/3.

⁽²³⁾ ابن منظور، مرجع سابق: 465/4.

⁽²⁴⁾ <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%83%D8%AD%D9%84%D8%A9>(consult é le 20/08/2022).

ومن الأمور التي أسعدت الثعالبي أنّ والد أبي عبد الله، وهو الشيخ أحمد بن يوسف الكفيف أخبره أنّهم كانوا إذا خافوا هجوم العدو على بلادهم أخرجوا نساءهم وذريعتهم ونفيس أموالهم، ولم يبق في البلاد إلا المقاتلة، ما يجعل العدو يُعرض عمّا أقدم عليه إذا علم بذلك، وأنّ ما قصده بغزوه قد فات.

وفي المقابل، لم يكن الثعالبي مرتاحاً من موقف أهل بجاية، بل كان متألماً من موقفهم السليبي اتجاه ما بعثه إلى بعض فقهاءهم يحرضهم على الجهاد، وعلى إعداد العُدّة اللازمة لذلك، ومن ذلك اتّخاذهم درق العود بدل درق الجلد، فلم يجد لذلك آذاناً صاغية، ولا تأثيراً لكلامه فيهم، كآثره في أهل مدينة الجزائر وبواديها، ومّا زاد الثعالبي ألماً وأسفاً على أهل بجاية أنّ ردّهم لنصحه هو في الحقيقة ردٌّ لتحريض النبي ﷺ على الجهاد.

ومع هذا، لم ييأس الثعالبي في نصّحهم، وطلب من أبي عبد الله أن يرأسهم ويكتب إليهم يحرضهم على اتّخاذ درق العود ويكثروا منه كثرةً تكفيهم وتكفي من يستنجد بهم من أهل البوادي، فهو خير لهم وأقلّ كلفة من بنائهم الأسوار العالية، مع ما فيه من ربح للوقت؛ لأنّ الأمر في نظر الثعالبي لا يتحمّل التأخير، وهو في غاية الاستعجال، لما يتوقّعه من هجوم الروم على بجاية والسواحل الإسلامية بعد هزيمتهم في القسطنطينية وفي غيرها من الأماكن، وقد توقّع رحمه الله - بما يعرفه عنهم من حمية وعصبية - أنّهم لن يهدأ لهم بال حتى يتأروا لهزيمتهم، وينصروا صليبيهم.

وختم الثعالبي رسالته بإشهاد الله أنّه قد بلغ وأدّى الأمانة، وأنّ أهل بجاية لو علموا ما علمه، ورأوا ما رآه رحمه الله من تحريض النبي ﷺ على الجهاد لما تكاسلوا، ولا تأخروا في الاستعداد للجهاد، ولجعلوا ذلك أهمّ وظائفهم بعد أدائهم لفريضة الصلاة، ولكن الأمر كما بيّنه ρ أنّه لا يستطيع أن يصرّح لضعاف الإيمان بكلّ ما علمه ورآه؛ لأنّ عقولهم لا تتحمّل ذلك، فيكون فتنه لهم.

3.4. مناقشة نصّ الرسالة⁽²⁵⁾:

لقد اشتملت رسالة عبد الرحمن الثعالبي على جملة من المواضيع المهمة والجديرة بالمناقشة العلمية التي يُقصد منها استخراج الفوائد التي تكشف جوانب مهمة وخفية من شخصية الثعالبي، والتي يمكن أن نجعلها في النقاط الآتية:

1.3.4. الاطلاع الواسع للثعالبي على أحوال العالم: فهذا هو يتحدث عن حال الروم في المشرق، وهزيمتهم في القسطنطينية على يد الخليفة العثماني محمد الثاني بن مراد الثاني، الملقّب بمحمد الفاتح (833-886هـ/1428-1481م)، هذا الفتح الذي كان فجر يوم الثلاثاء 20 جمادى الأولى سنة 857هـ الموافق لـ 29 مايو 1453م⁽²⁶⁾، وكيف ربط رحمه الله هذه الهزيمة وبين قرب غزوهم لسواحل المغرب العربي، لم يكن ذلك منه رجماً بالغيب، ولكن عن معرفة بالقوم وبطبائعهم، فهو لا يفرّق بين الروم في القسطنطينية وبين إخوانهم في الدين والعقيدة في إسبانيا والبرتغال وغيرها من دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وكان شبه واثق من انتقامهم لهزيمتهم في القسطنطينية بغزوهم لبلاد المسلمين في المغرب العربي.

2.3.4. متابعة الثعالبي لشؤون بلاده الجزائر: وهذا ظاهر في اهتمامه رحمه الله بأحوال مدينة بجاية، التي لها المكانة العالية في قلبه، كيف لا، وهي أولى المحطّات في رحلته العلمية، وبشيوخها وفقهائها تخرّج، وحصل، فغزر علمه، وصحّت قريحته. والرسالة التي بين أيدينا أوضح دليل، وأصدق شاهد على هذا.

⁽²⁵⁾ يقول عبد الحميد زوزو، وهو يبيّن طريقة مناقشة نصّ تاريخي: «...لكن المطلوب منه مناقشة الأفكار الواردة سلباً أو إيجاباً كالردّ على ما يراه قابلاً للردّ... والتدخل للذكر ما يراه حسناً كالذقة في التحليل أو في الوصف والأسلوب... وقد يتخذ التدخل شكل إضافة لتكملة نقص في المعلومات أو الكشف عن جانب يساهم في تصور كامل للفكرة وتوضيح للصورة». نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، عبد الحميد زوزو: ص11.

⁽²⁶⁾ تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا: 137/1-138.

3.3.4. دراية الثعالبي وخبرته بشؤون الأسلحة الموجودة في عصره: يكاد يكون هذا هو جوهر الرسالة التي أراد من خلالها الثعالبي أن ينصح أهل بجاية وما جاورها من البوادي، كما نصح وأشار -من قبل- على أهل مدينة الجزائر بإعداد العدة لملاقاة العدو، والأخذ بما استطاعوا من القوة لذلك، وقد نصحهم رحمه الله باتخاذ درق العود بدل درق الجلد، وأوضح لهم أنّ رأيه هذا صادرٌ عن خبرة وتجربة، لا عن حدس وتخمين. وانظر إلى درايته رحمه الله بالأنسب والأنتفع في الدفاع عن الأرض وهو يقول: «ويعلموا ما أشرنا إليه من الدرق على الوجه الذي أشرنا إليه، فهي أقرب مرأماً وأقلّ كلفةً من بناء الأسوار». واعجب أيضاً من معرفته بأنواع الأسلحة، من السيوف، والنشاب، والدرق، والمكاحل، والأسوار.

ثمّ هو فوق ذلك خبير بالخطط العسكرية، فقد أعجبه رأي أحمد الكفيف في إخراج النساء والذراري ونفيس الأموال من البلاد، والإبقاء على المقاتلة فقط، وذلك عند العجز عن العدو لكثرتة.

4.3.4. معرفة عبد الرحمن الثعالبي بأحوال السلطة السياسية: ولأجل هذا توجه رحمه الله بنصائحه وتوجيهاته لطبقة الفقهاء والمصلحين، ولم يعول على أمراء وسلاطين ذلك الوقت، لا سيما الحفصيين الذين دخلوا في صراعات مع الأعراب الذين استدعوا الأمير أبا الحسن بن أبي فارس صاحب بجاية، فأجاب دعوتهم، وخرج لهم السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان وهزمهم، وبقيت بجاية، تارةً في يد أبي عمرو عثمان، وتارةً في يد أبي الحسن بن أبي فارس إلى أن استولى عليها أبو عمرو سنة 856هـ⁽²⁷⁾، هذه الأحداث كانت قبيل رسالة الثعالبي بسنوات قليلة، باعتبار أنّه بعث بها بعد هزيمة الروم في القسطنطينية سنة 857هـ. بالإضافة إلى ازدياد تسلّط شيوخ القبائل الذين ليس لأغلبهم اهتمام إلا بما يزيد في ثرائهم، من خلال فرضهم المغارم والغصوبات على السكان، ما جعل السلطة المركزية تعترف بسلطتهم مرغمة، مقابل التزامهم بمساعدتها في حروبها وصراعاتها الداخلية⁽²⁸⁾. ولهذا نجد الثعالبي في رسالته

⁽²⁷⁾ محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية: ص 198.

⁽²⁸⁾ ابن خلدون، مرجع سابق: 46/6.

هذه لم يذكر ولم يُشر للأمير من الأمراء ولا لحاكم من الحكّام⁽²⁹⁾، بل كان خطابه وتعويله - بعد المولى - على الشعب بقيادة الفقهاء والصلحاء.

5.3.4. اعتماد الشيخ على الرؤى والمنامات: وهذه المسألة كانت حاضرة بقوة عند علماء ذلك الوقت الذي كان جلّهم منتسبًا إلى طريقة من الطرق الصوفية، والذي لم ينتسب - كما هو الحال عند الثعالبي - كان متصوِّفًا. وقد اشتهر كثير من المتصوِّفة باختلافهم الرؤى والمنامات لأغراض غير نبيلة⁽³⁰⁾، لكن الظنّ بعالم وفقهه في حجم الثعالبي أنّه لا يصدر منه مثل هذه الخزعبلات، ولو كانت لغرض صحيح، وهو الحثّ على الجهاد في سبيل الله، وهو رحمه الله أخبر بما رآه، وبما رآه غيره من الصالحين حثًا وتحفيزًا على جهاد العدو، وهذا لا إشكال فيه؛ لأنّ المنوع أن يُجعل الرؤى والمنامات مصدرًا من مصادر التشريع، تُبنى عليها العقائد ويُعرف بها الحلال والحرام؛ أمّا إذا كانت الرؤيا مشتملة على أشياء مشروعة، فإنّها بهذا تكون من المبشّرات. روى مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أنه كان يقول: في هذه الآية: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (يونس: 64) قال: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تَرَى لَهُ».⁽³¹⁾

الخاتمة:

في خاتمة هذا البحث، والذي تناول رسالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في الجهاد، يمكننا تلخيص أهمّ النتائج المتوصّلة إليها في النقاط الآتية:

⁽²⁹⁾ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: 207/1.

⁽³⁰⁾ المرجع نفسه: 206/1.

⁽³¹⁾ مالك، كتاب الرؤيا، باب ما جاء في الرؤيا، ح 2751: 547/2.

1. الشيخ عبد الرحمن الثعالبي شخصية دينية وقامة علمية وضع بصمته وترك أثره في الحياة العلمية والثقافية الجزائرية، والمغربية.
2. من أبرز السمات العلمية للثعالبي كثرة تأليفه، وتنوع موضوعاتها، من تصوّف، وفقه، وعقيدة، وتفسير...
3. كشفت رسالة الثعالبي في الجهاد عن جانب معرفي عملي قد يجهله كثير من الناس، وهو معرفة الشيخ الثعالبي بأنواع العُدّة المادية في الجهاد، وأدواته المستخدمة فيه، وما يناسب أهل كلّ منطقة مما يكون فيه نكاية بالعدوّ ودفع لشَرّه واعتدائه.
4. إنّ هذا الجانب الخفيّ في حياة عبد الرحمن الثعالبي كافٍ في دفع التهمة عن كثير من المتصوّفة، وما أشيع عنهم من أنّهم بعيدون عن الجهاد في سبيل، غير مشاركين للناس في حياتهم، لا يعيشون هموم وتحديات أممهم وبلدانهم.
5. أنّ هذه الرسالة كشفت أيضًا عن أوضاع سياسية واجتماعية وعلمية كانت تعيشها الجزائر في تلك الفترة الزمنية، في ظل غياب دولة قويّة، ما جعل العلماء والمصلحين يشعرون بمسؤوليتهم اتّجاه أمّتهم، وبضرورة التصدّي لمواجهة التحديات والمخاطر التي كانت تُحاك ضد الجزائر خصوصًا، والبلاد الإسلامية عمومًا.

التوصيات:

إنّ البحث في تراجم علماء الجزائر وكشف اللثام عن جوانب من حياتهم العلمية لا يزال يحتاج إلى مزيد بحث وتشرح وتحليل، رغم ما بذلت فيه من جهود، وعقدت لأجله مؤتمرات وملتقيات، وأنجزت في سبيل الكشف عن خباياه من دراسات.

وبعد بحثي المتواضع في هذا الموضوع في بعض جوانبه، أقترح:

1. الإكثار من مثل هذه الملتقيات الوطنية، والدولية، وتنظيم ورشات علمية على مستوى الكليات، لا سيما غير المتخصّصة.
2. اعتماد مقياس ضمن المقرّرات الجامعية، بل والمدرسية أيضًا لدراسة تراجم علماء الجزائر، وما لهم من إسهامات علمية وامتدادات معرفية، وفاءً لهم واعترافًا بجهودهم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة-الجزائر، 2016م.
- 2) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد بن محمد أبو العباس المقرئ، تحقيق: عبد العظيم شلي، ط، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، 1358هـ/1939م، (د.ط).
- 3) تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط.1، 1998م.
- 4) تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مكتبة الشركة الجزائرية-الجزائر، ط.2، 1383هـ/1965م.
- 5) تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل-استانبول، ط.1، 1408هـ/1988م.
- 6) التحفة المرضية في الدولة البكداشية، محمد بن ميمون، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، ط.2، 1981م.
- 7) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، ط، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، 1418هـ/1997م.
- 8) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر-بيروت، ط.2، 1408هـ/1988م.
- 9) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ط، منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- 10) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقشوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، ط.8، 1426هـ/2005م.
- 11) لسان العرب، محمد بن مكرم، ابن منظور، دار صادر-بيروت، ط.3، 1414هـ.
- 12) محمد الباجي بن أبي بكر المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية-القاهرة، ط.1، 2012م.
- 13) المغرب العربي تاريخه وثقافته، راجح بونار، ط، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع-الجزائر، 2010م.
- 14) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط، دار الفكر-بيروت، 1399هـ/1979م.
- 15) الموطأ، مالك بن أنس الأصبغي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط.2، 1417هـ/1997م.
- 16) نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، عبد الحميد زوزو، ط، موفم للنشر-الجزائر، 2010م.
- 17) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا بن أحمد التنبكي، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب-طرابلس، ليبيا، ط.2، 2000م.